ولما كان الفلاح يشكل، تاريخياً، الجسد الرئيسي لشعب مصر، فإن هذا الحكم ينسحب على مجمل الشخصية الوطنية المصرية.

يرى ارنولد توينبي أن الفلاح المصري، على مر التاريخ، كان ينظر إلى ممثلي السلطة ــ وعلى رأسهم حاكم الدولة ــ نظرة اجلال بلغ، في معظم الأحيان، حد التأليه والتقديس؛ ولذلك، كان يذعن لأوامرهم بصورة شبه مطلقة، وأصبحت طاعة الحاكم وكل من يمثله واحدة من أبرز الصفات السلوكية للفلاح المصري[١]. وفي التقرير الذي أعده عن مصر في عهد محمد علي، أكد الدكتور جون باورنج على ما أسماه «عادة الخضوع عند الفلاح المصري» زاعماً أن هذه العادة عميقة الجذور حتى أنه ــ أي الفلاح المصري ــ «يفضل الموت على أن يثور»[٢]. وبيوت بك، مدير الادارة البيطرية للمزارع الحكومية المصرية وسكرتير المعهد المصري لعدة سنوات في نهاية القرن التاسع عشر، يصف الفلاح المصري بأنه خنوع أمام من هو أعلى منه إلى حد اتهامه نفسه، ويرجع السبب في ذلك إلى مئات السنين من القهر والمعاناة[٣].

وفي كتابه «الفلاح» يورد الأب هنري عيروط عن المقريزي، عن كعب الأحبار، أن الله بعد ان خلق كل الاشياء اعطى لكل شيء قريناً، قال العقل: «إني ذاهب إلى سوريا»، فقالت الثورة: «وأنا ذاهبة معك». وقال الفقر: «إني ذاهب الى الصحراء» فقالت الصحة وانا أيضاً ذاهبة الى هناك». ولما قالت الوفرة: «إني ذاهبة الى مصر» قالت السكينة: «وانا سأصحبك».

ويضيف الأب عيروط معقباً: «هذه هي سكينة الفلاح ولكنها تصل إلى حد المهانة والتدني اللتين لم يفرضهما الفقر عليه بقدر ما فرضهما القهر المتواصل من سيده ومجتمعه، وعادة ما تزعم هذه الطبقة أن الفلاح لا يستطيع أن يقدر سلطة تتعامل معه بإنسانية، وهذا صحيح، ولكنه صحيح لأن الفلاحين في الماضي لم يربوا إلا على الضرب والغرامات واللعنات والاهانات والترهيب؛ الأمر الذي حولهم في النهاية، إلى مخلوقات عديمة الحس»[٤]. وواضح أن الاب هنري عيروط استمد رأيه هذا من الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، وهو ابن أحد الملتزمين، حيث يقول عن الفلاحين، في المجلد الثالث من عجائب الآثار: «وإذا التزم بهم ذو رحمة ازدروه واستهانوا به... وتمنوا زوال التزامه وولاية غيره من الجبارين».

وهكذا، وإن اختلفت المقدمات، يصل الأب هنري عيروط الذي يعتبر كتابه من المراجع الكلاسيكية عن الفلاح المصري إلى النتيجة نفسها.

ويصل الباحث المصري، كمال المنوفي، إلى النتيجة نفسها التي وصل إليها ارنولد توينبي والتي تفيد بأن الفلاح المصري يطيع الحكام باعتبار ذلك واجباً دينياً. ويذهب الباحث نفسه إلى أن الفلاح المصري يتصور أن الثورة على الحاكم المسلم، مهما بلغ جوره، شيء مرذول؛ وذلك عملاً بفتوى الإمام أحمد بن حنبل والقائلة بأنه، على الرغم من أن الحاكم الجائر لا يطاع في معصية، فإنه لا يجوز الخروج عليه، لأن ذلك يعني استبدال